د . سهيل ادريس

ملاحظات على قصيدتي نزار قباني وسعيد عقل

قرات قصيدتي نزار قباني وسعيد عقل في مهرجان تكريم طه حسين في القاهرة. ولست احب ان اقيم بينهما المقارنه ، ولكني اجتزيء ببعض الملاحظات والتاملات التي اوحتاها لي .

١ ــ تشرب قصيدة نزار قبانـــي كالماء الزلال ، وترشف ابياتها بعذوبة ، لانها متفجرة من نبـع التدفق والطبعيّة . انها كالشجرة الفضّة ، تستمد نسغها مـن تلقائية الجذور السمحاء ، وعفوية الارض المعطاء ، بعيدة عن اي تصنع ، وان لم تكن بعيدة عن الصنعة الفنية .

اما قصيدة سعيد عقل فيغص بها الحلق ، ويصاب منها اللسان بالتقبض والمرارة . ذلك ان القاريء مضطر الى مصارعة عباراتها وصولا الى مقاصدها ، فيكاد ذلك يخلّف لديه الصداع . ومرد هذا ان الشاعر لا يتوسل الى معانيه المفردة الواضحة ولا العبارة اللينـة ، فاذا شعره مطبوع بطابع التعقيد اللفظي والمعنوي في آن .

نزار قباني ، في هذه القصيدة ، كمـا في شعـره السابق ، عموديه وحرّه ، يعتمد « البساطة » في اختيار الكلمة وتركيب العبارة ، وهذه البساطة هي التي خلقت له ذلك الرصيد من الشعبية الذي يكاد لا يدانيه فيه شاعر عربـي معاصر .

على ان تلقائية نزار تتمرد على اية سطحية ، وبساطته لا تتعارض والعمق ، اذا كان العمق غنى الايحاء والشفافية ، وهو المطلوب في الشعر . وهذه نماذج من القصيدة تمثل لهـذه الرؤيـة :

ــ ضوء عينيك ام هما نجمتان
كلهم لا يرى وانت تراني
ــ ضوء عينيك ام حوار المرايا
ام همـا طائران يحترقان
ــ ارم نظارتيك .. ما انت اعمى
انما نحن جوقة العميـان

هذه الابيات تتزاوج فيها البساطة والعمق عبر صور يغنيها التشبيه الموضوعي والانطباع الذاتـي فـي وقت واحد . بل لعل العمق ان يكون ناشئا من التناقض في الصور : العينان المطفأتـان والنجمتان . عيـون الناس المفتوحة التي لا ترى ، وتانك العينان المظلمتان اللتان تريان (الشاعر) . ثم ان تشبيه العينين المغلقتين على السواد بطائرين يحترقان يبلـغ حد الروعة . وفي تصعيد اخـر للتصوير ، يهتف الشاعر بالعبقري الغائب : ارم نظارتيك ... ما انت اعمى ، انما نحن جوقة العميان .

انني اقرأ الان عبارتي الاخيرة التي اردت ان انثر فيها بيت الشاعر ، فأجدني وقد استعملت كلماته كلها ، من غير تبديل ولا تحوير ، ولا تقديم ولا تأخير . ماذا اذن ؟ هذه الكلمـات النثرية تتحول فجأة الى كلمات شعرية ، في غير ما ضعف ولا تهافت ، لان البساطة فيها مقترنة بصدق العفوية او عفوية الصدق ، وهي التـي لا تناقض بينهـا وبين العمق .

ــ ايها الفارس الذي اقتحم الشمس
والقى رداءه الارجواني
ــ فعلى الفجر موجة من صهيل
وعلى النجم حافر لحصان
ــ ازهر البرق في انامك الخمس
وطارت للغرب عصفورتـان
ــ ان تلك الاوراق حقل من القمح
فمن اين تبدأ الشفتان

وفي هذه الابيات لا تحول البساطة والوضوح دون المتانة في التراكيب والغنى في التصوير والتجنيح فـي الخيال . فشطرة « ازهر البرق في انامك الخمس » مثلا تتألف من مفردات شديدة البساطـة ، ولكنها بالتزاوج السعيد تخلق استعارة مدهشة تصوّر النار التي كانت تحملها ريشة طه حسين في كتابات التحدي والاقتحام . وتشبيه أوراق صاحب « الايام » بحقل من القمح ، بهذه العفوية البسيطة ، يبعث صورة نابضة لبيدر تتهافت عليه العصافير ولا تدري اين تنقد حبوبه المنثورة .. ثم تتجسد تلك المناقير بشفاه القـراء التـي تلملـم الاحرف عن السطور ..

هذه النماذج تحمل اذن الـى البساطـة اللغويـة البعيده عن التسطح ثراء الصور النابضة بالالوان . فهي لذلك سهلـة التلقي ، ولكنها عميقة التأثير .

اما قصيدة سعيد عقل فلفتها مقلـع احجار تعوزه ذائقـة الهندسة لدى التركيب . ولا يفهم متذوق الشعر كلف هذا الشاعر بالتعقيد وانصرافه الكلي عن البساطة ، من غير ان يلزم عن ذلك اي عمق . فانت اذا فككت هذه الاحجار وحللت مفاصلها خرجت بصور قد تكون ميزتهـا الاولى المبالغـة في الشطحات الخيالية والبلهوانية فـي البناء التركيبي ، ولكن اثرها لدى المتلقي بعيد عن ان يكون عميقا . خذ هذه النماذج من القصيدة :

ــ ذكراك ما ذكراك ؟ قل ضربا
هام الجبال غضوب اشعل السحبا
ــ ولو لريشة عصر ان تظلله
لكنت كالليـل لفّ المنتهى بابا
ــ كما صرعت ، رفعت : الريح آيتها
ان عصفها هي ، لا ثوب ولا قشبا
ــ وشائل بفواها وهم انّ لها
مثل الجناحين رفّا فوق .. واغتربا
ــ وما التقى الحسن من لبنان ضجّ صبا
بفن مصر تفاوى في الحديد صبا
ــ حتى غدت للألى قيلوا العقول منى
وللألى ارتحـن لاستغبائهن غبـا
ــ انزل بقلبي ، بهمّ الارز يوم أسى
بالشيح بالريح ، بالهبّات غبّ صبا
ــ . . . . . .

ان تعمّد التعقيد في تركيب هذه الابيات النموذجية يذهب بكل جمال الشعر والشاعرية . فكيف اذا كان شطح الخيال في تماديه يوحي لدى كل صورة بمجانية الفانتازيا التي تحرك ذهن الشاعر ؟

سنحاول هنا ان نستخرج الصور التـي أرادهـا صاحبهـا :

ان ذكرى المحتفى به تذكر الشاعر بغضوب (قـد يكون طيرا او انسانا) ضرب هام الجبل فاشعل السحب . وهي صورة لا جدّة فيها ، اذ ان الغضب الذي يرفـع

صاحبه فوق الجبال ليشعل السحب لا يكتسب بفعل ذلك ميزه خاصة تجعل من هذا الغضب او من صاحبه بدعا في البشر . فهي اذن شطحة خيال مجانية لا تقول شيئا . اما من حيث المبنى ، فلست اجد اقبح من روي اشطر الاولى : ضربا . انه يكاد يضرب المتلقي في وجهه، فيخلف لديه ، منذ البدء ، النفور والاستهجان !

وصوره البيت الثاني تريد ان تقول : اذا كان لقلم في عصر معيّن ان يظلل بقيمته واهميته هذا العصر ، فان قلمك فيما يظلله أشبه بالليل الذي يلف الدهر كله ، اي ان قيمته واهميته تنسحبان على التاريخ كله فتظللانه دون سائر الاقلام والعبقريات. أهل يمكن لخيال شاعر ان يفقد ميزان الكلام كهذا الخيال ؟ اما قافية هذا البيت فملصقة به الصاقا ، اذ ما دخل الاباء او الخنوع بهذا كله ؟

واما البيت الثالث ، فقد افتقدنا فيه حقا وجه الشبه بين الريح التي آتيتها انها هي عصفها بالذات (وكم هو سقيم قلب التركيب : ان عصفها هي !) وبين صرعه ورفعه ..

واما الابيات الثلاثة التالية التي تتحدث عن تمثال نفرتيتي الذهبي ، فهي مثقلة بالتراكيب المعقدة التي لا تستبين فيها الصورة الا بشق النفس ، وتكاد لا تفهم بيتها الاخير :

حتى غدت للألى قيلوا العقول منى
وللألى ارتجن لاستفبائهن غبا

بقي اخر بيت من النموذج الذي اوردناه ، وهو ترحيب بطيف طه حسين ان ينزل بقلب الشاعر ، وبهم الارز اذا نابه الاسى وبشجر الشيح وبالريح (وهذه طبعا مجرورة باغراء الجناس) وبالهبّات .. وواضح انه كان بوسع الشاعر ان يطيل اللائحة الى ما لا نهاية ، من غير ان يزيد شيئا على المعنى العادي المبذول .

أعود ، عند هذا الحد من الاستشهاد ، الى التأكيد بأن التعقيد الذي يلف هذه القصيدة يحرمها من مزايا التدفق والعفوية ويشل فيها ، على الصعيد الفني ،امكان الايصال والتلقي . (١) .

٢ ــ اما على صعيد الموضوع، فتعتبر قصيدة نزار قباني شاهدا على العصر الذي يعيشه ، نقصد هنا على المجتمع الذي يعيش فيه . وهو شاهد اخر يدل على ان هذا الشاعر يمدّ جذوره في أرض بلاده ، ويغمس قلمه في امراضها ويعمل مبضعه في آفاتها .

ان حديث نزار قباني عن سقوط الفكر في النفاق السياسي ، مثلا ، موجة عارمة تنبض بالصدق والصراحة:

سقط الفكر في النفاق السياسي
وصار الاديب كالبهلوان
يتعاطى التبخير ، يحترف الرقص

---

(١) يقتضيني التجرد ان اقول اني توقفت في هذه القصيدة عند ابيات قليلة وجدتها جيدة ، لان الشاعر جرى فيها مع العفوية واليسر وابتعد عن التعقيد المعهود ، ومنها قوله في الاشارة الى انطفاء النور في عيني طه حسين :

ــ والليل وحدك تدري اين منبعه (...)
ــ كذاك انت رمت عيناك ليلهما
ثقلا على الشرق عاد الشرق ملتهبا
ــ تعلم الجيل من طفل تمرّ به
ازاهر فترى في وجهه العطبا
ــ فتكتم الحزن عنه خوف تجرحه
لكنه هو لا يستعذب الكذبا

نزار قباني — سعيد عقل

★★★

ويدعو بانتصر للسلطان
عند الينا فان ما يكتب اليوم
صغير الرؤى صغير المعاني

ونراه يستغل روح التحدي التي كان طه حسين يتحلى بها ليخرج الى فضح التزلف والخنوع لدى فئة من الكتّاب الجبناء الذين باعوا نفسهم للشيطان :

ــ انت أرضعتنا حليب التحدي
فطحنّا النجوم بالاسنان
ايها الغاضب الكبير تأمل
كيف صار الكتّاب كالخرفان
قنعوا بالحياة شمسا ومرعى
واطمأنوا للماء والفدران
ان اقسى الاشياء للنفس ظلما
قلم في يد الجبان الجبان

هذه الصيحة التي يدين بها نزار النفاق والتكسب والتزلف تنضاف الى صيحاته الكثيرة السابقة في تعرية المجتمع العربي ، فتجعل منه شاعرا في طليعة الشعراء الرافضين ، بل الثائرين .

ولكن التصاقه بالواقع ، وانغماسه في اتون الصراع الذي يعيشه الوطن العربي انما يبرزان في ذلك النداء الذي يطلقه من اجل مصر في محنتها الحالية حين يقول :

تستبد الاحزان بي فأنادي آه يا مصر من بني قحطان
تاجروا فيك ساوموك استباحوك وباعوك كاذبات الاماني
حبسوا الماء عن شفاه اليتامى وأراقوه في شفاه الغواني
تركوا السيف والحصان حزينين وباعوا التاريخ للشيطان

انه هنا يدين التناقض الفظيع الذي يشل الوطن العربي بين فقرائه العاملين من اجل مجده وعظمته ، واغنيائه الآسنين في حياة الخنى والمذلة . وهو في هذه المفارقة المبكية يتذكر وطنه السوري ووطنه الآخر الفلسطيني :

يشترون القصور ، هل ثم شار لقبور الابطال في الجولان
يشترون النساء هل ثم شار لدموع الاطفال في بيسان
يشترون الدنيا واهل بلادي ينكشون التراب كالديدان
آه يامصر ! كم تعانين منهم والكبير الكبير دوما يعاني

ان نزار قباني يقتحم الواقع ولا يخشى نبشه وتجريحه وتعرية فضائحه ، فيشارك بذلك في خلق الادب الثوري المناضل الذي هو اليوم طليعة انتاجنا الحديث . هذا الانتاج الذي لا تنفصل فيه الهموم الفنية ، في وجدان الاديب ، عن هموم الشعب والمجتمع .

فما هو موقف سعيد عقل ؟

ان بوسعنا ان نعد قصيدته هذه ، بالمقياس نفسه ، شاهدا على انقطاع صلة الشاعر بمجتمعه الحقيقي ، بل هي شاهد على انه ينسى هذا الواقع في كثير من الاحيان حين يكتفي بالتمجيد والتعظيم والتفاخر والمباهاة ، توهما منه ان هذه هي الوطنية الحقيقية !

يقول سعيد عقل :

انت مني زهر لبنان وكنت صدى
لثورة في بنيه تنزل العصبا
ليست من النار لكن من ارادتها
تعطي الهنيهات نبضا ، تشرب الغضبا
انزل بملهبي ، بهم الارز يوم اسى
بالتسبيح بالريح ، بالهبات غب صبا
انزل بما ضج في لبنان من وله
بالكبر لم ينجرح ، بالورد ما انتهب
بماردين ابوا الا الحياة على
بممسكين بقرن الدهر مطلبا
بحبهم ، بضروب العزم في يدهم
بعولهم للزمان اركض ام انت هبا
تكن نزلت ببعض الصخر من جبل
له على المجد فضل المجد ان صعبا

ان « حس الكرامة » الذي قد ينبعث من هذه الابيات هو ادنى الى ان يكون ضربا من جنون العظمة حين يتجاوز مقاسد الواقع ويفضي عن الافات الكثيرة التي تنخر المجتمع اللبناني وتشل فعالياته وتجعله بالطائفية والاقطاع والاقليمية والاستغلال مجتمعا متخلفا لا يقل تخلفا عن اي مجتمع شرقي مريض .

فاذا قيل ان مناسبة لتكريم ذكرى طه حسين لا تحتمل اطلاق اصوات النقد الذاتي والتجريح النفسي ، قلنا ان هذا غير ممتنع بالضرورة .. ولكن تلك المناسبة لا تحتمل كذلك تشويه الواقع والاسترسال مع مرض التفاخر الفارغ الذي يملأ به سعيد عقل اعمدة بعض الصحف اللبنانية منذ سنوات .. واذا كانت المناسبة تحتمل التنويه ببطولات مصر في الحرب في قوله مخاطبا روح طه حسين :

تلك الكرامات في العقل ارتجتك اخا
تلك البطولات في الحرب ارتضتك ابا

اذا كان الشاعر يذكر بطولات سيناء وحرب تحريرها ، فكيف يجيز لنفسه ان يتناسى تقاعس لبنان بالدفاع عن ارضه وكرامته ، ولا يذكر الا « الماردين الذين ابوا الا الحياة على » ؟

ان التباهي الزائف الذي جعله سعيد عقل دأبه وديدنه في كل ما ينتجه يفسد الاجيال اللبنانية اذ يغريها بالقعود والاسترخاء ويزهدها بالكفاح والصراع من اجل مجتمع لبناني افضل . وبهذا يتبدى الشاعر هنا كقوة رجعية تشد البلاد الى وراء .

٢ ـ اذا كان نزار قباني يدين الواقع العربي الفاسد، فلأنه يملك حسا تاريخيا سليما ، هو الحس الذي لا يعكر لديه الرؤية الشمولية للتاريخ العربي .

فهو يشير الى « مصر بني قحطان » والى التاريخ الاسلامي والى الشعراء العرب ، ثم يتحدث باسم مصر عن دورها في صنع التاريخ العربي :

قد رددنا جحافل الروم عنكم
ورددنا كسرى انوشروان
وحمينا محمدا وعليا
وحفظنا كرامة القرآن

ومن هذا الوحي بالذات ، يخصص نزار القسم الاخير من قصيدته لادانة تقصير العرب في دعم مصر ومدها بما تستطيع ان تواصل به رسالتها العربية .

اما سعيد عقل ، فلا يذكر من مصر الا تمثال نفرتيتي المذهب والهياكل .. وهذا طبعا من تاريخ مصر ، ولكنه جزء يسير من هذا التاريخ . وهو بالتالي تشويه للتاريخ الحقيقي ، لانه اسقاط لتاريخ مصر العربي ولحضارتها العربية . والواقع ان سعيد عقل لا يني ينكر صراحة اي تاريخ عربي لاي بلد عربي ، تستوي في ذلك مصر ولبنان . وقد سبق له ، اثر زيارة منذ بضعة اشهر للقاهرة بدعوة من وزارة الثقافة المصرية ، ان طالب وهو على ارض مصر بما سماه « تمصير مصر » كما اشار مندوب جريدة « النهار » في القاهرة آنذاك .

ولكن ، وهو في ذكرى تكريم طه حسين ، الا يجد في نتاج صاحب الذكرى ما يحمل التعبير عن ذلك التاريخ العربي والفكر العربي والحضارة العربية ؟ ما الذي كانت ترمي اليه جميع دراسات طه حسين الادبية ؟ وما الذي كانت ترمي اليه « اسلامياته » على الخصوص ؟ اكان يقصد الى تحقير ذلك التاريخ والانتقاص من شأن الحضارة العربية ؟ فلماذا يسقط سعيد عقل هذا كله من حسابه فيشوه تاريخ مصر اذ يهمل الحقبة المتأخرة منه ، وهي التي تمتد حتى ايامنا هذه ، وهي التي تعيش فيها مصر حقيقتها وقيمتها ، في حين ان تاريخ الحقبة المتقدمة التي يتغنى بها سعيد عقل قد بـاد ودرس ، ولم يبق الا للذكرى ؟

***

وبعد ، فهذه هي بعض الخواطر التي اوحت لي بها قراءة القصيدتين . واود ان اختم هذه الملاحظات بالاشارة التالية :

ان سعيد عقل ، صاحب هذه القصيدة ، يدعو الى هجر الفصحى ، واحلال العامية محلها .

ونحن اذا نظرنا الى الموضوع نظرة سطحية ، وجدنا في الامر مفارقة وتناقضا .

اما اذا تعمقنا الامر قليلا ، فلن يمتنع علينا التفكير بان مثل هذه القصيدة انما يندرج في الدعوة نفسها والمخطط نفسه : تعقيد الشعر الفصيح الى حد تنفير الناس به وصرف القراء عنه ، وهو بالذات ما تؤدي اليه قصيدة سعيد عقل هذه ..

ولكن الجواب على ذلك ان هذه الدعوة صائرة حتما الى الاخفاق لان المؤمنين بها لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة . اما الشعراء العرب الذين يحببون الناس بالفصحى التي تصبح بين ايديهم لغة الحياة الواقعية الحقيقية ، فهم كثيرون . وليس نزار قباني الا واحدا منهم ، وان كان من ابرعهم !